وسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدَّمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ[1] أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج] فهذا الخزْىُ الذى رأَوْه فى الدنيا لن يُفلتهم من خزْى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شدَّته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾

---

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلأ وانتفخ من ذلك غضباً ، وخَصَّ الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . وورَّم فلان بأنفه توريماً : إذا شمخ بأنفه وتجبَّر . [لسان العرب ـ مادة : ورم] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨١)] .

﴿ذَٰلِكَ .. ⑩﴾ [الحج] يعنى خزْى الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذى ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑪⑱﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذى يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتْكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ⑮﴾ [الإسراء]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ .. ⑩﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدى[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ⑩﴾ [الحج] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٤٨/٦) : « عبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة فى الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ فى الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة فى عدد الوجبات فتأكل فى الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى فى الإثبات ولها معنى فى النفى : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفى أنه آكل .

فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج] فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفى الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة فى تكرار الحدث ﴿ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم فى حقيقته أن يأخذ القوىُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو فى خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته فى ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له فى الخير وفى الشر ، فى السراء وفى الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل

---

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :

– عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢٠٩/٣) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٥) .

– عن أبى سعيد الخدرى قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيراً ، أذهب بصرى ومالى وولدى ، فقال : يا يهودى إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أنْ تأخذ ما يجرى عليك من أحداث الحياة فى ضوء هذه الصفات .

فإنْ أثقلتْك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعدك ، فلعلهم إنْ وجدوك فى سعة وفى خير طَمعُوا وفسدوا وطَغَوْا ، ولعل حياة الضيق وقلَّة الرزق وتعبك لتوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

لا بُدَّ أنْ تعرف هذه الحقائق ، وأنْ تؤمن بحكمة ربك فى كل ما يُجريه عليك ، سواء أكان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ أصابك مرض أقعدك فى بيتك فَقُلْ : ماذا حدث خارج البيت ، أبعدنى الله عنه وعافانى منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة فى البيت الواحد ، وفى ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم فى المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلمَّا بحثوا فى سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته وطفولته فى وقت كان والده مريضاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قسْط من الرعاية والتربية ، ولم يجد الفرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفى نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده فى فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدق على أسرته ، فتربَّى الولد فى سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفى نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفاً واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة فى هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حكَم ؛ لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت فى الخير وفى الشر.

ومعنى : ﴿ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ⑪ ﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشىء ، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف فى آخر الجالسين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعنى : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذى يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء فى الخير أو فى الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. ⑪ ﴾ [الحج] وكذلك : ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. ⑪ ﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذى أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك

بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ..۝﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رزقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزَق منه بشئ ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ فى ابن أُذَيْنة[1] حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل ـ وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد علمت ومَا الإسْرَافُ منْ خُلُقِي ... أنَّ الذى هُوَ رِزْقى سوْفَ يأتينى؟[2]

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً ، ونبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة فى

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٢٢٧/٤] .

(٢) ذكر هذا البيت والذى بعده خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام (٢٢٧/٤) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٣٤/٢ .

الموقف وأنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذى قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة فى مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينى تطلُّبه ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانى لاَ يُعنِّينى

كذلك نلحظ فى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فِتْنَة) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح فى هذا الاختبار فلا يكون شراً فى حقِّه .

ومعنى : ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. (١١)﴾ [الحج] وخُسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شىء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التى تُعوَّض ، أما الخسارة التى لا عوضَ لها فهذه هى الخسران المبين الذى يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذى يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[1] .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعتَبَة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذى دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارونَ فى الوصول إلىَ هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة فى الرُّقى الإيمانى .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد فى بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما فى ذلك ؟! إنه حال الكلاب فى بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَّريق ، فيحاول أنْ يرتقىَ فيه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد فى عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبه : ألاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشتَاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى : ﴿ مَا لا يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هل الصنم الذى يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التى يعاندها والمجَازى الذى يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه فى أىِّ شىء ، أو يخشى ضره فى أىِّ شىء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقفَ الولد يفكر مرة وألف مرة في توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِم أبناءنا مبادىء الإسلام ، ليعرف الولد منذ صغره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أوْلَى بطاعته .

وتلحظ في الآية أن الضر سابق للنفع : ﴿مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ .. (١٢)﴾ [الحج] لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإنا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً ، وتشتغل بدَرْء المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثلاً : هَبْ أن إنساناً سيرمي لك بتفاحة ، وآخر سيرميك بحجر في نفس الوقت ، فماذا تفعل ؟ تأخذ التفاحة ، أو تتقي أذى الحجر ؟ هذا هو معنى « دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » .

﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾

الآية السابقة تثبت أنه يدعو ما لا يضُرُّه وما لا ينفعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقربُ من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا فى صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر فى هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر فى الحُسْن .

فقوله تعالى : ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج] إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية فى ظاهرها تُناقض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة في ضوء قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

فالأوثان التى كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكَّمون فيها وفى عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .

فالأوثان ـ إذن ـ سبب فى نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه فى الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ [الحج] كلمة (بئس) تُقَال للذم وهى بمعنى : ساء وقَبُح ، والمولَى : الذى يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرِّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لنُصْرته ، وهذا هو الولىُّ .

وإما أنْ تُقرِّبه منك ؛ لأنه يُسليك ويجالسك وتأنس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التي يعبدونها بئست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير ؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها في غير الشدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) ﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتيَ بالمقابل ؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتأمل في أسباب دخول النار ، وفي أسباب دخول الجنة ، وهذا أجْدَى في إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

فذِكْر النعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتي الأثر المطلوبَ ، لكن حينما تقابل النعمة بالنقمة وَسَلْب الضر بإيجاب النفع فإنَّ كلاهما يُظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح عن النار فقط ـ مع أن هذه في حدِّ ذاتها نعمة ـ لكن تُزَحْزح عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبي ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود .. إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق في قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم ينْهكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر في كُلِّ أعمالك وفي كُلِّ ما تأتي أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (١٤) ﴾ [الحج]

وفي سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالتواصي بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعي الإيمان وثمرة من ثماره ؛ لأن المؤمن سيتعرَّض في رحلة الحياة لفتن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه ـ إذن ـ أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فترات ضعف وخور ، فعلى القوى فى وقت الفتنة أنْ ينصح الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال فى موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمَنْ أوصيته اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمر فى المجتمع الإيمانى التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

إذن : تواصَوْا ؛ لأنكم ستتعرضون لهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب . وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر . وهذه عناصر النجاة التى ينبغى للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : ﴿ جنَّات تجرى من تحتها الأنهار .. (١٤) ﴾ [الحج]
الجنات : هى الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء ؛ لذلك قال : ﴿ تَجْرى من تَحْتهَا الأَنْهارُ .. (١٤) ﴾ [الحج] ومعنى : ﴿ من تحتها .. (١٤) ﴾ [الحج] أن الماء ذاتىٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ تجرى تحتها الأنهار .. (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[1] (١٤) ﴾ [الحج] لأنه سبحانه لا يُعْجزه شىء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

---

(١) أى : يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله . [قاله القرطبى فى تفسيره (٤٥٥٢/٦)] .

ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشـيء الذى يريده الله ويأمر بكونه موجوداً فى الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فهو - إذن - كائـن فعلاً ، وموجود حقيـقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره فى عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ(١) فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾

(يظنُّ) تفيد علْماً غير يقينى وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا فى نسبة القضايا ، فهـناك حكم محكوم به ومحكوم عليـه ، تقول : زيد مجـتهد ، فـأنت تعتقـد فى نسْبة الاجـتهاد لزيد ، فـإنْ كان اعتـقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدَّليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضيـة ولم يُقدِّم عليها دليلاً كانْ سمع الناسَ يقولون : زيد مـجتـهد . فقـال مثلهم ، لكنْ لا دليلَ عنـده على صدْق

---

(١) ورد فى هذه الآية تاويلان لها :

١ - من كان يظن أن لن ينصر الله مـحمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة فليمـدد بسبب أى بحبل إلى السمـاء - أى : سمـاء بيته - ثم ليـقطع . أى : ثم ليخـتنق به . قاله ابن عـباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .

٢ - من كان يظـن أن لن ينصر الله نبيـه ويكابد هذا الأمر ليـقطعه عنه ، فليـقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله فى السـماء (ثم ليقطع) أى : عن النبى الوحىَ الذى يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

قال ابن كثيـر فى تفسيره (٣/٢١٠) : « قول ابن عبـاس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/١٥ ، ١٦) وقد قال الشيخ الشعراوى - رحمة الله عليه - بكلا القولين ، فكلاهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذي تُلقّنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهى تقليد ، فإن اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإنِ اعتقدتَ قضيةً غير واقعية ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذى يُتعب الدنيا كلها ، ويُشْقى مَن حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالى الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أنْ تُقنعه بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقِى إليه بالفكرة الصواب .

فإنْ تشككْتَ فى النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما **علم** تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو **تقليد** : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو **جهل** : حين تعتقد شيئا غير واقع ، أو **شك** : حين لا تجزم بالشىء ويستوى عندك النفى والإثبات ، أو **ظن** : حين تُرجِّح الإثبات ، أو **وهم** : حين تُرجِّح النفى .

فالظن فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ .. (١٥)﴾ [الحج] أى : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهَّم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأملون ذلك فى معركة الإيمان والكفر - مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهىَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رأوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً فى السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل :

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأسىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به ما لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة فى مواضع أخرى(١) من كتاب

---

(١) وردتْ هذه المادة فى القرآن الكريم :

- يغيظ . الفعل المضارع . ورد ٣ مرات : (التوبة ١٢٠) ، (الحج ١٥) ، (الفتح ٢٩) .
- الغيظ . الاسم معرف بالـ ورد ٤ مرات : (آل عمران ١١٩ ، ١٣٤) ، (التوبة ١٥) ، (الملك ٨) .
- بغيظكم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير المخاطب للجمع ، ورد مرة واحدة : (آل عمران ١١٩) .
- بغيظهم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير الغيبة للجمع ، ورد مرة واحدة : (الأحزاب ٢٥) .
- لغائظون . اسم الفاعل الجمع مؤكد باللام ورد مرة واحدة : (الشعراء ٥٥) .
- تغيظاً : مصدر الفعل تغيَّظ ، ورد مرة واحدة : (الفرقان ١٢) .

الله، وقد استُعْمِلَتْ حتى للجمادات التى لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .... (٨) ﴾ [الملك] وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾ [الفرقان] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن وللكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .. (١٥) ﴾ [التوبة]

أما غيْظ الكفار من نَصْر الإيمان فسوف يَبْقى فى قلوبهم ، فربُّنا - سبحانه وتعالى - يقول لهم : ثقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامنٌ أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفى غيظكم إلاَّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه فى آية أخرى فقال : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. (١١٩) ﴾ [آل عمران]

ومعنى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ .. (١٥) ﴾ [الحج] ﴿ فَلْيَمْدُدْ .. (١٥) ﴾ [الحج] : من مدَّ الشىء يعنى : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩) ﴾ [الحجر] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً فى السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿ إِلَى السَّمَاءِ .. (١٥) ﴾ [الحج] يعنى : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه فى سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أىّ شىء يُوصِّلك إلى السماء ، وأىّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أىَّ طريقة تُوصِّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نَصْر محمد يأتى من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ.. (١٥)﴾ [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿يَنصُرَهُ .. (١٥)﴾ [الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم . والضمير مُبْهم لا يُعيِّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمْدة الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإنْ لم يكُنْ متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شىء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثتُ عنه ، جاءتنى امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذكْر لرسول الله ﷺ قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذكر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيِّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ(١) .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ .. ①﴾ [القدر]

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره في مقامه .

اقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ⑥①﴾ [النحل] . على ظَهْر أيِّ شيء ؟ الذِّهْن لا ينصرف في هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ①⑤﴾ [الحج] الاستفهام هنا ممَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقرّوا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شيء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ①①⑨﴾ [آل عمران]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥٥٣/٦) : « الكناية في ﴿يَنصُرَهُ اللَّهُ .. ①⑤﴾ [الحج] ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد ﷺ » .